حظ الاديب في مصر

للأستاذ عبد العزيز البشري

خاض بعض أفاضل الكتاب في هذا الحديث فتظاهروا على أن الأدب لا يجدي في مصر على أهله ، وإن هو أجدى بعض الاحيان ففي شح وتقتير ، إذ هو في بلاد الغرب يعود بالغنى والثراء ، وقد يعود بأوسع الغنى وأضخم الثراء . وراحوا يشعبون مذاهب العلل والاسباب لهذه الحال : ومن بين هذه الاسباب قلة عدد المتعلمين في البلاد ، وفتور هؤلاء عن اقتناء كتب العلم والادب ، وخاصة اذا استخرجت منهم أثمانها ، وانتشار الادب الرخيص تتضح به بعض المجلات الاسبوعية فيقبل عليه الشباب من المتعلمين ومن لا يزالون في طريق التعلم مطاوعة للشهوة ، ولانه لا يحتاج الى كد ولا مطاولة . وكذلك اضافوا الامر الى أثرة الناشرين واستغلالهم حاجة الادباء ، وضعف وسائل هؤلاء الى القيام بنشر آثارهم بأنفسهم ، ثم الى عدم عناية القادرين ، من أي صنف كانوا ، بالادب الرفيع يذكونه بألوان المعونة والتشجيع .

وكل هذه الاسباب لا تعدو في رأيي الحق الواقع في كثير ولا قليل. وعلى ذلك لم أدفع القلم اليوم لمنافستها والتماس سواها ، وإنما لاسرد تاريخاً موجزاً لصلة الادب بالمادة في بلادنا ابتداء من الجيل الذي شهدنا طرفه الى غاية هذا الجيل الذي نعيش فيه .

كان الأدب من بضع وخمسين سنة مجرد حلية وزينة يتكلفه المتأدبون إما للمفاكهة والتعابث والتظرف . واما للزلفى طلبا للتمكين من المنصب أو الحظوة عند أولي الأمر ، أو استخراجا للاحسان .

لم يكن الادب ، في الجملة ، اذن يطلب غرضا ساميا سواء من امتاع النفس باطلاعها على ما في الكون من فتنة وجمال ، أو معالجة القضايا العامة وملابسة الأسباب الدائرة بين الناس . فكان الشعر في الجملة أيضا ، يدور في المذاهب التي سلكها العرب الأقدمون من مدح وهجاء ، وفخر وغزل ورثاء : على أنه حتى في هذه الأغراض الضئيلة لم يكن أكثره على شيء من الخطر سواء في سمو المعاني أو في قوة الأداء . بل كان نسلا ضعيفا متزايل الاجزاء . وكيف بشعر لا يزيد على أنه نقض دارس مما أزل شعراء العهد العثماني : التماس للمحسنات البديعية من جناس وتورية واستخدام ، بالغة ما بلغت المعاني ، وواقعاً ما وقع نظم الكلام .

أما النثر ، وأعني النثر الفني بالضرورة ، فكان أشد نسولة وأبلغ تزايلا : كلام لا يكاد يجري لغرض أو يستشرف الى غاية : انما هو السجع يلتزم فيه كله فترى فيه السخن والبارد ، والحلو والحامض.

لم يكن من شأن هذا المقال أن يعرض للاسباب التي بعثت هذا الادب القوي العالي الذي نذوقه اليوم ، فذلك مبسوط في كتب تاريخ الادب العربي . وانما عقدنا هنا الكلام لايراد موجز من تاريخ التكسب بالادب عندنا في العصر الحديث كما ذكرنا في صدر هذا المقال .

لقد كان التكسب بالشعر ، في الجملة ، من طريق واحدة ، هي ان طائفة ممن يتكلفون نظم الكلام كانت الحاجة تبعثهم الى أن يرتصدوا لحكام البلاد وأعيانها وموسريها حتى اذا دخلت على أحدهم نعمة من أي لون كانت أو مات له ولد أو نسيب بادروا بازجاء التهنئات يموهون حروفها بماء الذهب ، أو المراثي يجللون رقاعها بالسواد ، ولا يزالون يختلفون اليه في طلب العطية . وقد لا يظفرون ، في الغاية ، الا بتسريح بغير احسان. ولقد أساء هؤلاء الى الادب اساءة بالغة بحيث نشأت ناشئة الجيل الماضي وهي لا تكاد ترى في الادب الا الكدية ، ولا في الاديب الا أنه شحاذ !

أما التكسب بالنثر فكان له طريق آخر أقبح من ذاك وأخزى . وذلك باصدار صحف صغيرة حقيرة لقد تظهر مرة في الاسبوع أو في الشهر أو في نصف العام . ومادة كتبها في الواقع من تخويف ضعاف النفوس بتشهيرهم وطلب معايبهم والتلمس الى مكارههم إلا أن يشتروا أعراضهم ، فان فعلوا والا فلا مهم الحبل .

ولقد انتهى ، والحمد لله ، هذان الضربان من التكسب بالادب ولم يبق لهما في بلادنا ، على ما أرى ، من أثر . ولعل ذلك راجع الى تغير فهم الناس لمعنى الادب ، وارتفاعهم به على ذلك الهوان ، والى انتشار الثقافة بوجه عام ، والى خشية سطوة القانون بوجه خاص .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هنالك أدب ولا أدباء ، بل كان الشعراء وكان خيار الكتاب ، الا أنه لم يكن يتكسب أحد من هؤلاء (ما عدا الصحفيين المحترفين) بصنعة القلم .

نعم كانت الصحافة بمعناها الصحيح ، ولا زالت مهنة كريمة نبيلة تجدي على أصحابها وعلى المشتغلين بها مايموّنون به على شملهم، بل ما قد يغنيهم ويضيف اليهم الثروات الضخام . أما هواة البيان ، على حد التعبير الحديث ، فلم يكن لهم من هذه الجدوى نصيب .

ثم كانت (الجريدة) وقام على شأنها استاذنا العلامة الكبير أحمد لطفي السيد بك ، فرأى أن يدعو نفراً من كبار العلماء

والكتاب الى تغذية الجريدة من وقت لآخر بالمقالات المتخيرة المنتقاة فى مختلف أسباب الحياة ، واجتعل لهم على ذلك الجعالات. ولعله فى ذلك كان متهديا سنة الصحافة فى بلاد الغرب .

على أنه لما اشتدت قوة الصحافة فى مصر وعظم انتشارها بحكم اطراد الحضارة وكثرة المتعلمين ، وازدياد تتبع الجمهرة للاسباب العامة وشدة اهتمامها بها — اضطرت — كبريات الصحف ، بنوع خاص ، الى العناية بتجويد تحريرها ، واغزار مادتها ، حتى لقد جردت بعض صفحاتها لتريف البحوث فى شتى العلوم والفنون ، وفوق أنها أضعفت وظائف محرريها أضعافا . فقد جعلت كذلك توجر الكاتبين فيها من غير محرريها مما لم يكن يحلم به أحد من عشر سنوات خلت .

هذه حقيقة للأدباء أن يغتبطوا بها ، واذا كان المدى بين حظوظهم وبين حظوظ رصفائهم فى الغرب لا يزال فسيحا ، فلهم من الأمل فى القريب مزيد إن شاء الله .

* * *

بقى الحديث فى التكسب بالأدب من طريق نشر الكتب ودواوين الشعر . والذى شهدناه من أعقاب الجيل الماضى ولا نشهد غيره الى اليوم أن الكسب من هذه الطريق يكاد يكون مكسورا على جماعة الوراقين كما قال بحق بعض كبار الكاتبين . على أننى أرجو منه أن يأذن لى فى استثناء أصحاب الكتب المقررة للتدريس ، فأولئك وحدهم المجدودون ، أو الذين كانوا مجدودين الى وقت قريب .

لقد كان الأدب عندنا ، ولعله لا يزال عند الا كثرين الى الآن ينتظم فى سمط الكماليات ، والكماليات عند أكثر الناس ليست حقيقة بأن يخف المرء اليها ، اللهم إلا إذا واتته عفوا ، أو بغير مشقة ولا جليل انفاق . فبات بديها ألا تنفق كتب الأدب حتى تعود على أصحابها بنفقات طبعها ، بله الثروة وكرائم الأموال .

أما كتب العلم ، فان العلم يطلب فى بلادنا على أن يفضى الى إحراز شهادة رسمية تقلد محرزها منصبا حكوميا ، فاذا لم يكن الأمر على هذا فلا كان علم ولا كان تعليم !

هذه حقيقة واقعة أرى أن انكارها ضرب من الغش والتدليس مشايعة لهوى الجمهور ، والعياذ بالله ! لعل واحدا فى كل ألف من الذين ختموا دروسهم فى بلادنا هم الذين يشقون كتابا علميا لاتدعوهم الى شقه حاجة المهنة . نعم لعل فى الألف من المتعلمين واحدا أو دون الواحد هم الذين يطلبون العلم ويراجعون مدوناته ليكملوا أنفسهم ، وليزيدوا من معارفهم ، ويفسحوا فى ملكاتهم . العلم عسير المضم ، يكد الذهن ويجهد النفس ، تقيم مكابدته وشدة المطاولة فى تحصيله ما لم تقض بتحصيله ضرورة ملحة قاسية ، من ارهاق الولى أو الحاح الحاجة ، أو جموح الشهوة الى المنصب يعرض الجاه ، ويعز فى الأهل والصحاب ! . وكيف تريدون أن تنفق عندنا كتب العلم للعلم ؟! . . . .

أما الكتب المقررة للتدريس فهى التى كانت الى وقت قريب ، تدر على أصحابها الكثير ، بل الذى يستطيعون أن يكاثروا به أعلى مؤلفى الغرب قدرا وأبعدهم صوتا ! ولا أحسب أن هذا الاجداء كله يرجع الى فضل المؤلفين وحده وعظم تجويدهم لما يخرجون من فنون الكتب ، بل لعل شيئاً من ذلك يعود الى أن هذه الكتب مفروضة فرضا على العديد الاكبر من تلاميذ المدارس تشتريه وزارة المعارف لهم أو تريدهم على شرائه ، وإلا خذلوا فى الامتحان وأفلتهم الاجازات ، أو على الاصح فاتهم التأميل فى المناصب الحكومية ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

الواقع أن أكثر الكتب المقررة موف على الغاية من التجويد والاحسان ، ولكنها غير مدينة فى رواجها الى هذا التجويد والاحسان . بل هى مدينة فى ذلك ، مع الاسف الكثير ، لأنها مفروضة على التلاميذ فرضا ، ولو قد عدل عنها ما أخرجت المكتبات عشر ما تخرج منها على أسخى تقدير . وهذه الحقيقة المرة القاسية ترينا مبلغ حظ العلم والأدب فى هذه البلاد .

ومهما يكن من شىء فان لنا أن نغتبط ، ولو قليلا ، اذا نحن قسنا حاضرنا بماضينا القريب ، فبين مؤلفينا من يستردون من أثمان مؤلفاتهم ما أخرجوا لطبعها ، وفيهم من تفضل عليهم من الربح الكثير أو القليل . وكل الذى نرجو أن تطردهم الشبابيك تحصيل العلم الصحيح ، وتجرد عزائمهم فى طلب الأدب العالى . معرضين عن التماس هذا الأدب الهين الرخيص هنالك تنبعث فى البلاد الحياة القوية العزيزة ، وهنالك يجازى العلماء والأدباء بما يكافىء الجهد العظيم ؟

عبد العزيز البشرى

مطبعة فاروق

٢٨ شارع المدابغ بمصر

لا تعلن عن نفسها إلا بالعمل